# أمجد الطرابلسي في مرآى تلميذ قديم

# ١٩١٦ – ٢٠٠١

# «الذكرى العاشرة لوفاته»

**د. عمر الدقاق(*)**

هو الأديب الشاعر والأستاذ الرائد في كلية الآداب بالجامعة السورية وعضو مجمع اللغة العربية بدمشق .

ولد أمجد حسني محمود الطرابلسي بدمشق في الثالث عشر من شهر أيار عام ١٩١٦ وتعلَّم في مكتب عنبر، ونال شهادة البكالوريا – قسم الفلسفة عام ١٩٣٤ . وكان من أساتذته الشاعر محمد البزم (١٨٨٧ – ١٩٥٥).

أخذ ينظم الشعر في يفاعته، ويرفد صحافة دمشق والقاهرة بقصائده العاطفية والوطنية، ومن ذلك ما نشره في مجلة الرسالة لأحمد حسن الزيات التي كانت أشهر المجلات وأوسعها انتشارًا في ديار العرب.

---

(*) باحث في الأدب والنقد من سورية، وعضو مراسل في مجمع اللغة العربية بدمشق.

وفي بداياته عمل الطرابلسي مدرِّسًا في دمشق، ثم وقع عليه الاختيار مع صفوة من أقرانه، الذين أوفدوا إلى جامعة باريس وغيرها من جامعات المدن الأخرى في مونبلييه وليون، للحصول على المؤهلات العلمية العالية في اختصاصات متعددة مثل الأدب والفلسفة والجغرافية والزراعة وبعض العلوم الأخرى. وكان ذلك الإيفاد في العامين ١٩٣٧ – ١٩٣٨ حين كانت غيوم الحرب العالمية الثانية تتلبد في سماء العالم .

وجدير بالطرابلسي وبأمثاله الرُّواد في رحاب العلم والأدب والتربية والتدريس أن يُشاد بفضلهم وينوَّهَ بقدرهم، وهذا أقل ما يقتضيه الوفاء الجمُّ وما يجب على الجيل اللاحق تجاه أعلام جيلهم السابق، الذين بَنَوْا فأَعْلَوْا ثم مضَوْا محمودين مبجلين بعد أن أَدَّوا رسالتهم نحو أمتهم على خير وجه من الدأب والعطاء .

والحديث عن الأعلام الراحلين بطبيعته يثير في النفوس الشجن، كما يبعث فيضًا من المشاعر البهيجة والذكريات العذبة. وحين تتعدد في الإنسان الجوانب، أو عندما تتنوع لديه المواهب، يغدو الحديث عنه عسير المنال، وقلما يوفيّه حقه خطاب أو مقال. فالدكتور أمجد الطرابلسي أستاذ جليل، ومربٍّ كبير، ومؤلِّف قدير. وهو أيضًا شاعر مبدع، وكاتب بليغ، وناقد حصيف. وإلى جانب ذلك كان الفقيد ذا موقع رفيع على الصعيد الإداري والعلمي والسياسي، حين غدا عهدئذ في طليعة الهيئة التدريسية في كلية الآداب المحدثة في الجامعة السورية، وحين أصبح عميدًا لهذه الكلية، ومن بعد، وزيرًا للتربية والتعليم في الإقليم

السوري في مستهل عهد الوحدة، ومن ثم اكتسب عضوية مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٦١.

لقد سعدت، كما سعد جيلي، بالتَّلْمَذة لهذا الأستاذ الكبير، وذلك في رحاب كلية الآداب في الجامعة السورية بدمشق طوال أربع سنوات، لعلها أجدى مرحلة من مراحل عمري، وأبعدها أثرًا في تكويني الأدبي والفكري. وكان إلى جانب أستاذنا الطرابلسي صفوة من الأساتذة الأجلاَّء منهم شفيق جبري وعز الدين التنوخي وبهجة البيطار وجميل صليبا وكامل عياد وسعيد الأفغاني وخلدون الكناني وحكمت هاشم وعادل العوا وعبد الكريم اليافي وجودت الركابي وعبد الله عبد الدايم وإبراهيم الكيلاني... الذين أرسَوْا دعائم الدراسات الأكاديمية في الجامعة السورية الناشئة، وكان فضلهم عميمًا في حقل التدريس الجامعي ومجال العلوم الإنسانية.

حين وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها، وانقشعت سحبها القاتمة، وانحسرت أهوالها المقيتة... منّ الله على أمجد الطرابلسي وسائر رفاقه الموفدين في ديار الغرب بنعمة الإياب إلى وطنهم الأثير سالمين غانمين. وكانوا كأنهم على موعد مع القدر، حين تحررت سورية العربية من حكم الأجنبي، وأزيح عن صدرها كابوس الاحتلال. وما كان أحلى عهدئذٍ، بل ما كان أروع أن تصير الثكنة العسكرية الرهيبة جامعة علمية عتيدة، وأن تغدو بؤرة القهر والذل ، موئلاً للمعرفة والعلم.

وإذا كانت ظاهرة الحب من النظرة الأولى صحيحة كما يقال، بدت لنا المحاضرة الأولى التي تلقيناها من أمجد الطرابلسي فتحًا جديدًا في مجال التدريس... أي سحر جاذب كان يكمن في شخصية هذا الرجل النحيل وعينيه البراقتين وأدائه الشائق، ماذا كان يخبئ لنا من زادٍ أدبي وثقافي هذا العائد إلينا من جامعة السوربون في فكره المتقد، وذوقه المرهف، ونظراته الثاقبة، ونبرات صوته العذبة؟.. لقد كان هذا أول الغيث...

وتوالت الأيام أيام الدراسة ، ونحن في كل حين ننتقل مع أستاذنا الأثير من حقل إلى حقل من الدراسات الجادة في مجال الأدب والنقد . هذه دراسة تحليلية أصيلة لشعر الوصف عند الشاعر زهير بن أبي سلمى في معلقته الميمية ومطولته الأخرى اللامية. وتلك أيضًا دراسة نقدية لشعر الرجز وعَلَمِهِ البارز رؤبة، بل لفن الرجز بمجمله ومدى تميزه عن القصيد المعهود... كذلك كان شأن تدارسنا قضايا التجديد في شعر أبي تمام وفنه التصويري، وما كان حوله من ضجيج وخصام لدى أنصاره ودعاة مذهبه، ولدى أنصار البحتري والمتمسكين بعمود الشعر العربي، ثم ما كان من أصداء هؤلاء وأولئك لدى الآمدي في كتابه النقدي النفيس «الموازنة بين الطائيين» . ومن هذا القبيل أيضًا بعد ذلك دراسة فنية لأشعار ابن خفاجة في وصف الطبيعة ومحاسن تلك الربوع الأندلسية ...

ثم انعطف بنا على هذا الصعيد أستاذنا الطرابلسي إلى دراسة اثنتين من أهم المقدمات النقدية في تراثنا الأدبي القديم الحافل، حين لم نكن نقيم في العادة وزنًا

لأية مقدمة تُعرض لنا في كتاب. كانت مقدمة ابن قتيبة لكتابه «الشعر والشعراء» موضع عناية أستاذنا في دراسة متأنية جادة، تناولت بالتحليل ما أثاره ابن قتيبة من قضايا نقدية كبرى في مجال المبنى والمعنى والمفاضلة بينهما، وأوجه الاتفاق والافتراق فيهما. ثم كانت الدراسة الأخرى في عامٍ تالٍ معالجة ما ورد في مقدمة ديوان اللزوميات لأبي العلاء من آراء نقدية تنم على ذائقة المعري، وتفصح عن مذهبه في الشعر ...وكانت مقاطع المقدمة على قدر من الصعوبة، فيما بدا لنا. ولكن الأستاذ الطرابلسي استطاع بحسن تَأَتِّيه، أن يسوِّغَها لنا ويمدَّ الجسور بينها وبيننا.

وما يقتضي التقدير والإشادة هو انعطاف الطرابلسي أحيانًا إلى دراسات نقدية مغايرة في الأدب الحديث، بعيدًا عن التراث الأدبي القديم، ليتناول فنًّا مستحدثًا طريفًا هو الشعر التمثيلي أو المسرحي، ويعمد إلى تحليل بعض مسرحيات شوقي، كمصرع كليوباترة، ليستخلص ما لها وما عليها، من حيث الشاعرية وملامح الشخصيات، ثم عناصر اللغة والحوار والقصِّ وما إلى ذلك...

ولعل الجديد الذي أدخلنا في عالمه أمجد الطرابلسي، هو الأدب الفرنسي ونقده، وذلك من خلال المادة المقررة «النصوص الأجنبية». وآنئذ عرفنا قدرًا، ولو يسيرًا، مما كنا نتوق إلى معرفته في مجال الاستشراق من جهود الأمم الأخرى المتحضرة في هذا الصدد. وبذلك أُتيح لنا أن نطَّلع على بعض ما كان أورده مثلاً المستشرق المعاصر بلاشير في كتابه عن المتنبي. كذلك رفدت ثقافتنا النقدية المتواضعة أفكارٌ نقدية أخرى أدلى بها أرسطو في كتابه «فن الشعر»، ثم قصائد

فرنسية طريفة في نقد الشعر، نظمها بوالو وتيوفيل غوتييه وهيريديا. وغير ذلك مما كان له مذاق خاص لدينا.

وكم يطول بنا الكلام على هذه المحطات الأدبية والنقدية، التي كان أستاذنا يقف بنا عندها بقدرٍ وافٍ من الرصانة والموضوعية والعمق. وما من ريب في أن كل هذا وسواه ينمُّ على تنوع غير معهود لدى الباحثين عادة في حقول الأدب والنقد ، إذ ليس من اليسير أن يعمد أستاذ ما إلى دراسة الشعر الجاهلي وفن الرجز العباسي ، ثم نقد ابن قتيبة والآمدي، وأن يتناول في الوقت نفسه مسرحيات شوقي وأن يعرفنا بالمذاهب الأدبية في فرنسا... إن مثل هذا الجمع بين المتباعدات لا يتأتّى إلا لنبهاء العلم وأولي العزم.

وواضح مما تقدم أن المنحى النقدي التطبيقي كان هو الغالب على معظم ما كان يتناوله الطرابلسي في محاضراته. بل إن هذا المنحى ما هو إلا امتداد لبواكير اهتماماته، حين كان يافعًا في جامعة السوربون بباريس، وحين آثر لنيل درجة الدكتوراه آنئذ موضوعًا نقديًّا مهمًّا عنوانه «قضايا المعنى والمبنى في النقد العربي، في القرن الرابع الهجري».

ويبدو لي، وربما لكل دارس على يد أمجد الطرابلسي، أن هذا المعلم الفذ استطاع أن يدخل طلابه في جوٍّ علمي طريف لم يكن لهم بمثله سابق عهد، وبذلك استطاع أن يكوّن جيلاً قويًا، ويترك فيه بصمات راسخة مدى الأيام..

❋ ❋ ❋

وبعيدًا عن قاعات التدريس والجو الأكاديمي تعود بي الذكرى أيضًا إلى أواخر عقد الأربعينيات من القرن العشرين على الأقل، حين هرعنا إلى النادي العربي العريق بدمشق، لنستمع إلى محاضرة ثقافية عامة للدكتور أمجد الطرابلسي موضوعها «الحرية والعبودية في الأدب» وقد غصّ البهو يومذاك بالقادمين. كان الانتباه بالغًا والعيون شاخصة، والآذان مصغية. ولما أوفت المحاضرة على الانتهاء، بما انطوت عليه من فيض زاخر وأداء شائق، ختم المحاضر كلامه بنداء ينمُّ على الجرأة والأصالة وتعشق الحرية مستمدًا إياه من صيحة الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ فقال: «أيها الأدباء، متى استعبدتم أنفسكم، وقد ولدتكم أمهاتكم أحرارًا ..» وكان على الأثر وقوف وإجلال، كما كان تصفيق وإعجاب .

ثم كانت المحاضرة العامة التالية التي سعدت بسماعها أيضًا لأستاذي الطرابلسي في حلب، مدينتي هذه المرة وذلك في ربيع ١٩٥٢. في تلك الحقبة نعمت الشهباء بمدير قدير لدار الكتب الوطنية هو الأديب الكبير سامي الكيالي صاحب مجلة (الحديث). فقد دأب في كل عام على استقدام نخبة من أعلام الفكر والأدب من لبنان ومصر ليحاضروا جمهور هذه المدينة العريقة. وكان أن لبَّى الطرابلسي دعوة صديقه الكيالي، فألقى محاضرة شائقة عنوانها: «الأدب العربي بين الأدب القومي والأدب الإنساني» . وقد نُشرت في إثر ذلك مع مثيلاتها لسائر المحاضرين كالمعتاد في ذلك الموسم الثقافي ضمن سلسلة منشورات دار الكتب الوطنية بحلب .

من فضل أمجد الطرابلسي عليّ، بعد فضل الله، أنني أحببت مادة دراسية كنت أتلقاها عنه حول «حركة التدوين عند العرب». وكان يروقني أن يَسْتَصْحِبَ إلى قاعة التدريس، قبيل كل محاضرة في هذا الصدد، عددًا من مجلدات جليلة القدر مختلفة الحجم من مكتبتنا التراثية الحافلة في اللغة والأدب والنقد والتراجم، فيضعها على المنبر، حيث نتملاها ونسعد برؤيتها وسماع بعض ما فيها. ولم نكن آنئذٍ ندري من أمرها شيئًا أكثر من أسمائها، ولعلها كانت الشرارات التي توهجت في نفسي بعد ذلك حين شببت وجنحت للتدريس الجامعي، فاخترت لنفسي أن أكون مدرِّس هذه المادة، متشبهًا بأستاذي أو مقتديًا به. فعلت بعدئذٍ ما فعله أيضًا، وجعلت مادته بين دفتي كتاب. وبين الكتابين عشرون عامًا، لعلها كانت مرحلة بين عهدين.

والفضل الآخر الذي ينمُّ على فضل أمجد الطرابلسي وأثره في مسيرتي العلمية أنني حين أُوفدت إلى مصر في مطلع عام ١٩٥٧ لمتابعة التخصص في معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة، أُتيح لي أن أطَّلع على جملة من منشورات هذا المعهد المتميز الذي أسسه ساطع الحصري، وهو تابع للأمانة العامة لجامعة الدول العربية، وقد تبدى لي يومئذٍ في عداد تلك المطبوعات كتاب لطيف الحجم كجسد مؤلِّفه أمجد الطرابلسي عنوانه (شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام) ومثل هذا الموضوع أو نحوه كان يستهويني ويستهوي أمثالي من شبان جيلي في إبَّان المد القومي، الذي كنا نعيش زخمه آنئذٍ في عقد الخمسينيّات،

والذي تمخض عن قيام الوحدة بين سورية ومصر. كما كنا في مدة الإيفاد نعيش أيضًا ذلك الحدث الكبير ونحن في قلب العاصمة الجديدة الكبرى للجمهورية العربية المتحدة، حين شهدنا عيانًا الزعيمين التاريخيين شكري القوتلي وجمال عبد الناصر يعلنان مولد أول دولة عربية موحدة في التاريخ الحديث.

وحين تناولت الكتاب وتصفحته باهتمام امتلأت نفسي بمحتواه وبأنفاس مؤلفه، الذي طالما تشبَّعت بفكره وأدبه في الجامعة السورية بدمشق. وكان أن قرَّ في ذهني بعد طول تفكر أن أختار (الاتجاه القومي في الشعر العربي المعاصر) موضوعًا في هذا الصدد أيضًا ليكون أطروحة للحصول على درجة الماجستير في الآداب في رحاب ذلك المعهد العالي. وقد ارتأيت أن أعرض الفكرة مع المخطط الأولي على العلامة الجليل ساطع الحصري، وهو رائد الدراسات القومية في فكرنا العربي الحديث. كانت زيارة في ذلك الحين لا أنساها لهذا الأستاذ الكبير في غرفته أو معتكفه بفندق فينواز العريق، كنت في تلك الزيارة في عداد أعضاء البعثة السورية من رفاقي في قسم الدراسات الأدبية وقسم الدراسات التاريخية، وهم توفيق برو ومحمد خير فارس رحمهما الله وعبد الكريم الأشتر أطال الله عمره. وكان أن أقرَّني يومئذٍ العلاَّمة الجليل فيما عزمت عليه، وأرشدني إلى بعض ما ارتآه في هذا الصدد منبهًا إياي إلى ضرورة تناول الموضوع تناولاً كليًّا من منطلق رؤية واسعة وضمن منظور جغرافي شامل، متجنبًا التناول القطري إلا ما تقتضيه المقارنات المنهجية ...

وهذا ما كان. فبعد زهاء عامين من الدأب أنجزت العمل على خير ما كنت أرجوه، إنه الاتجاه القومي في الشعر المعاصر. بِكر دراساتي وباكورة إنتاجي التي أعتز بها بطبيعة الحال. وحين اقترب موعد مناقشة الرسالة في ربيع عام ١٩٦٠ دعاني رئيس القسم في المعهد الدكتور المقدسي إسحاق موسى الحسيني إلى مكتبه وهو في الوقت نفسه أستاذي الذي أشرف عليّ أيضًا في مراحل إعدادي لهذه الدراسة، وكان الهدف ترشيح أسماء الأساتذة الذين سوف تُكوَّن منهم لجنة الحُكْم. وعندئذٍ تقدمت باقتراح حذر بأن يكون أستاذي الدكتور أمجد الطرابلسي مناقشًا أول لرسالتي، لأنه سبق أن كان أستاذًا زائرًا ومحاضرًا في معهد الدراسات نفسه، ولأنه فضلاً عن ذلك صاحب كتاب «شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام» الذي ضمَّ محاضراته السابقة في هذا المنبر. ومرَّت لحظة خلتها ساعة خيفة أن يتبادر إلى ذهن أستاذي المشرف أنني أفضِّل مناقشًا سوريًّا من بلدي قد يحابيني ساعة الامتحان، والمعهود أنه ليس من شأن الطالب أصلاً أن يختار ممتحنه. وسرعان ما ابتسم الدكتور الحسيني وأشار بكفه مستحسنًا ما كان من مبادرتي. وعلى التو كلفني بأن أنقل إلى الأستاذ الطرابلسي بدمشق رغبة المعهد في ذلك، ليصار في الخطوة التالية إلى إعداد كتاب التكليف أصولاً، ثم أردف الأستاذ الحسيني بقدر من الاستدراك مفاده أنه فكر مرة في هذا الاقتراح، ولكنه عدل عنه لأن أمجد الطرابلسي وزير، وليس بوسع من كان في مثل حاله في غمرة أعباء وزارة التربية والتعليم أن ينعطف للمناقشات والندوات وما إلى ذلك من نشاطات تربوية أو أدبية.

وقد أسعدني يومئذٍ ما تقدمت به من رأي مقدرًا ثقة أستاذي الحسيني بي، وذلك لأسباب عديدة قد تكون شخصية لديّ، فالأستاذ الطرابلسي يعرفني جيدًا بعد أن تَلْمذتُ له طوال أربع سنوات كاملات في رحاب الجامعة السورية، فهو أقدر من سواه على تقييمي، والسبب الآخر، وهو الأهم بطبيعة الحال، هو أنني بذلك أستبعد وقوع صدام معه ذي شأن في جلسة المناقشة الموعودة، لأن أرضيتنا ورؤانا واحدة تقريبًا على الصعيد القومي. على حين كانت تنتابني هواجس آناء الليل وأطراف النهار من احتمال نشوب خلاف بيني وبين الأستاذ الآخر المناقش، وهو في الغالب آتٍ من إحدى الجامعات المصرية، إذ قد يتصدى لي تجاه بعض القضايا الشائكة في سياق المقولات القومية التي تناولتها في أطروحتي، ولا سيما ما يتصل بالنزعات الإقليمية الضيقة لدى بعض دعاة الفرعونية والفينيقية وأمثالها في الشعر العربي ...

ومهما يكن من أمر سرعان ما طرت إلى دمشق وقصدت إلى أستاذي الوزير الدكتور أمجد في مكتبه حيث ضمتني معه جلسة قصيرة هادئة مساء يوم ربيعي بدمشق الفيحاء. لقد رحَّب بي واستفسر عن حالي. وعندئذٍ بادرت إلى إجمال ما أنا فيه بمصر ومعهدها، ونقلت إليه ما جئت من أجله. كانت دهشته جلية ولا ريب في أنه لم يتوقع مثل هذا الموضوع وهذه الدعوة، وهو في غمار الملفات واللجان وركام القضايا التي تنوء بها وزارة التربية والتعليم بطبيعة الحال. ولكنه فيما ظننت بدا مرتاحًا بل مسرورًا لهذه المبادرة، وقبل مشكورًا دعوة من المعهد العالي بمصر. أما أنا فكنت أشد ارتياحًا وسرورًا، إذ الأمور سائرة على النحو المنشود.

ولكن تلك الأمور لم تعد تجري كما تشتهي السفن، فبعد حين قصير تسلمت إدارة المعهد برقية من الدكتور الطرابلسي إلى الدكتور الحسيني يعرب فيها عن أسفه لعدم تمكنه من تلبية الدعوة الكريمة بسبب ما طرأ عليه من متطلبات العمل، مع وافر شكره وبالغ تقديره وطيب تمنياته.

وهذا ما كان من شأن أستاذي الطرابلسي الذي كان مصاحبي طوال تلك المرحلة الزمنية وأنا في مصر، إذ كان الحاضر الغائب معي منذ أن وضعت أول بذرة في اختيار أرضية أطروحتي حتى كتابة آخر كلمة يوم إنجازها...

❊ ❊ ❊

وبعد أعوام قليلة تم توسيع جامعة حلب وتطوير التعليم العالي فيها بإحداث كليات جديدة، هي كلية الآداب وكلية العلوم وكلية الطب فضلاً عن كلية الهندسة الأم ثم كلية الزراعة... وقد أسندت إلي وإلى نخبة صغيرة من الأساتذة مهمة التدريس فيها. وكان أول ما بادرت إليه لدى تَوَزُّعنا المقرراتِ الدراسيةَ، اختياري مادة حركة التأليف عند العرب التي طالما أحببتها وهي التي تلقيتها طالبًا لدى أستاذنا الطرابلسي في مرحلة التحصيل الجامعي. وهكذا توليت تدريسها على هدي أستاذي ونهجه، مع تعديل ارتأيته تجاه ذلك وفق اجتهادي وما كان من مستجدات علمية في المدة التي مضت بين عهدي الكتابين. وكانت حصيلة محاضراتي تلك زهاء ثلاث سنوات انقضت على تدريسي المقرر، أن تبدَّى لي أوان نشرها في كتاب على غرار ما كان ذلك من قبل لدى أستاذي...

وكان أن وُلد كتابي باسم (مصادر التراث العربي) في اللغة والمعاجم والأدب والتراجم. ثم أتيح لي بعد حين أن أصدره ثانية في طبعته المنقحة المزيدة وأن أبعث به إلى أستاذي الطرابلسي وهو آنئذٍ في جامعة الرباط التي آثر الانتقال إليها. وقد حمل النسخة بإهداء لائق صديقي المرحوم الدكتور صالح الأشتر، وهو مثلي تلميذه السابق ثم زميله في الجامعة المغربية في وقت لاحق، آملاً أن يلمس أستاذي بعض ما قَدَّمه أحد تلاميذه من غراسه الطيبة.

على أن غصصًا كانت تعتريني أحيانًا، وتثير في نفسي نوازع الشوق إلى أستاذنا الأثير الذي شاء أن يبتعد عنا ابتعادًا بائنًا، وآثر الاستقرار في المغرب الأقصى دون أن يتاح له أن يرى غراسه المباركة كاملة من خلال جهود تلاميذه المحبين الكثر وهم ماضون في مسيرتهم وعطائهم، بعد أن تلقفوا الشعلة من بين يديه ويدي أمثاله من الأساتذة الرواد.

وفي هذا الصدد ثمة تساؤل قد يرد على البال، وهو لماذا نزح الدكتور أمجد الطرابلسي عن بلده وعن صحبه وعشيرته وآثر النأي عن وطنه وجامعته، مع أنه كان يومئذٍ في أوج عطائه ونضجه، حتى إنه لم يبلغ سن التقاعد المعهود في عمله الجامعي، حين كان في منتصف الأربعينيّات من عمره. قد يكمن الجواب أو بعض الجواب أن سنة هجرته كانت سنة ١٩٦٢ وجرح الوطن ندي إثر انفصام عروة الوحدة وانهيار الجمهورية العربية المتحدة وتبدد ذلك الحلم القومي العزيز...

وثمة أمر أخير كنت أتمناه مع أترابي، وهو أن نعايش أمجد الطرابلسي شاعرًا كما عايشناه أستاذًا وناقدًا ومؤلِّفًا، فهذا جانب إبداعي في شخصية الطرابلسي الأدبية كان جديرًا بأن يُعرف على نحو أفضل. وقد أتيح لي أن أقرأ بعض أشعاره السالفة وأن أستمتع بجمالها، وكان حريًا بها أن تزداد جمالاً وتألقًا بأدائه الشائق وإحساسه المرهف بنبرة الكلمة وجرس الحرف. ولأمر ما أعرض الشاعر الرقيق عن نظم القصائد، وعمد إلى تطليق ربة الشعر، لينصرف إلى عالم التدريس والبحث والتأليف، وذلك على غرار ما كان من أمر نظيره ومعاصره أيضًا خير الدين الزركلي صاحب «الأعلام». أهو الحرص على وقار العلماء، ورصانة الباحثين ؟

وعلى أية حال فالطرابلسي شاعر مُقِلٌّ بادر إلى نظم قصائده في عهد اليفاعة والشباب وأكثر أشعاره وجداني وقومي واجتماعي كما هو معهود في أدباء جبلة . ومن ذلك قصائده «ترنيمة، هياكل بعلبك، اليتيم، عرس في مأتم عاصفة في قلب»، ومن ذلك المقطعات التالية معللاً في بعضها سبب عزوفه عن النظم :

قالوا سكت عن الغناء وما دَرَوْا ... في مسمع الآفاق رجع غنائي
الكون لحني في الورى رتلته ... في موئل الإصباح والإمساء

ومن غزله الرقيق في عهد الشباب:

عذراء يا هبة السماء ونورها ... تيهي سنا من نشوة وفتون
يا رفة الطرف الجميل وخفقة ... القلب الجريح وبسمة المحزون
أنت التي أبدعتني وجعلتني ... ألقى الحياة بنظرة المفتون
ولكم جهلت حقيقتي ومقاصدي ... أيام غاصت في السراب جفوني

وقد سبق أن حزَّ في نفسي قبل بضعة أعوام أن يهتف لي الصديق الراحل الدكتور شاكر الفحام رئيس مجمع اللغة العربية رحمه الله، وكأنه يستنجد بي أن أوافيه بما لدي من معلومات وانطباعات عن الدكتور أمجد الطرابلسي، بعدما عرف أنني أحد تلاميذه السابقين، كما بيَّن لي أن مسعاه لم يوفق إلى العثور على من يستطيع ذلك في دمشق على النحو المنشود. وعندئذٍ لبيت رغبته في رسالة مصحوبة بمقالة قصيرة ضمن ما كان متاحًا لي في هذا الصدد. وقد نشرت تلك المقالة الموجزة في ذلك الحين مجلة الضاد الحلبية في عدد كانون الثاني سنة ٢٠٠٢.
وقد تعزى قلة عارفي الدكتور أمجد الطرابلسي ولاسيما أصدقاؤه وطلابه السابقون إلى أن المدة التي قضاها في التدريس بجامعة دمشق اقتصرت على خمسة عشر عامًا، وهي مدة غير مديدة. يضاف إلى ذلك أن ابتعاد الراحل عن وطنه وعن مدينته دمشق كان ابتعادًا تامًّا وانقطاعًا بائنًا. فقد أمضى بقية عمره في الرِّباط ثم انتقل إلى باريس سنة ١٩٧٦ بعد أن بلغ السن القانونية للتقاعد وأقام فيها مع أسرته إلى أن وافته المنية سنة ٢٠٠١ وقد بلغ الخامسة والثمانين من عمره رحمه الله. كل ذلك يفسر سبب قلة الأخبار عنه أو ندرتها ، فأكثر الذين عرفوه أو عايشوه من أبناء جيله في دمشق قد غابوا عن الدنيا مع توالي الأيام.

* * *

ثم تبدت لي بعد حين أهمية تتبع حياة الطرابلسي في شطرها الآخر المغربي - الفرنسي بهدف سد الثغرة بل ردم الهوة في مجال معلوماتنا . إنها في واقع الأمر حقبة زمنية طويلة امتدت نحو أربعين سنة حتى وفاته سنة ٢٠٠١ أي ما يقارب نصف عمره المديد.

كانت جامعة محمد الخامس ما تزال في بداياتها وطور انطلاقتها، وبوسعنا القول: إن أمجد الطرابلسي كان أحد بناتها حين دأب على توطيد دعائمها وإغناء مسيرتها العلمية والإدارية بما لديه من خبرة واقتدار. وهذا ما أكسبه الحظوة والاحترام في الأوساط الإدارية والتعليمية. وقد تبدى فضله في تكوين نخبة من طلابه في مرحلة الدراسات العليا حين أصبح العديد منهم أساتذة في الجامعة نفسها، بل إن بعضهم كان من طلاب طلابه، شأنه في ذلك شأن الولد بل الحفيد. وقد غدا بحق أحد الرموز العلمية والثقافية في تلك الربوع القصية.

وكان من أنجب تلاميذ الطرابلسي من المغاربة محمد بنيس الذي كتب مرة في جريدة الحياة مقالة عنوانها (كوكب أتى من الشرق وتألق في سماء المغرب).

على أن صلة أمجد الطرابلسي بوطنه الأم لم تنقطع قط فالتراسل بينه وبين مجمعه مجمع اللغة العربية بدمشق كان يجري في بعض مجالات النشر في المجلة وفي مجال تحقيق المخطوطات. وقد بادر المجمع بدمشق إلى تكريمه بإقامة حفل استقبال له سنة ١٩٧٢ وهو العضو القديم فيه الذي جرى انتخابه سنة ١٩٦١.

كانت باكورة بحوث أمجد الطرابلسي في مجال التأليف هو أطروحة جامعية أعدها للحصول على درجة الدكتوراه في آداب اللغة العربية، وذلك في إثر إيفاده إلى جامعة السوربون بباريس. وعنوانها (نقد الشعر عند العرب حتى القرن الخامس)، وفيه تناول لقضايا المبنى والمعنى في النقد العربي. وقد أشرف عليه في هذا الصدد المستشرق ريجيس بلاشير. وقد ظلت هذه الأطروحة محفوظة بالفرنسية زمنًا طويلاً إلى أن عمد أحد تلامذته أو زملائه وهو إدريس بلمليح إلى ترجمتها إلى العربية، وكان أن صدرت بالدار البيضاء.

ثم كان من دراسات الطرابلسي المبكرة محاضرات بعنوان (النقد واللغة في رسالة الغفران) وقد ألقاها على طلابه بجامعة دمشق في الأعوام ١٩٤٩ – ١٩٥١.

وكتابه (نظرة تاريخية في حركة التأليف في اللغة والأدب) من أهم كتبه التي ألقى معظم محتواها على طلابه في جامعة دمشق طوال سنوات مديدة. وقد صدرت طبعته الأولى ضمن مطبوعات الجامعة السورية بدمشق سنة ١٩٥٦. ثم توالت طبعاته في دمشق ثم المغرب وكان آخرها بالرباط سنة ١٩٨٦.

وكتابه الآخر (شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام) صدر ضمن مطبوعات معهد البحوث والدراسات العالية بالقاهرة سنة ١٩٥٧، وهو مجمل المحاضرات التي ألقاها في القاهرة على طلاب ذلك المعهد.

وعلى صعيد آخر عُني أمجد الطرابلسي بالتحقيق في مجال التراث القديم فعمد إلى تحقيق مخطوط (الزاجر والنابح) لأبي العلاء المعري. وقد وجده في مكتبة المتحف البريطاني بلندن سنة ١٩٥٤. ثم وضع له مقدمة ضافية، وطُبع بالمطبعة الهاشمية ضمن إصدارات مجمع اللغة العربية بدمشق . وكتاب أبي العلاء الآخر هو (الصاهل والشاحج). وقد انصرف الطرابلسي إلى تحقيقه بالمغرب تلبية لرغبة مجمع اللغة العربية بدمشق، الذي زوَّده بمخطوطين ثمينين في إطار التعاون المثمر بينه وبين المجمع. غير أن ما حدث أن بنت الشاطئ طلعت على الملأ وعلى نحو مفاجئ بهذا الكتاب محققًا بالقاهرة، وقد تألم الدكتور أمجد في إثر ذلك، لأن الكثير من جهوده السالفة على هذا الصعيد قد ذهبت هباءً، وكان الدكتور أمجد قد نشر دراسة وافية حول ذلك المخطوط بلغت ثمانيَ وثلاثين صفحة ضمن مجلة المجمع الدمشقي سنة ١٩٦٤.

وأخيرًا فإن الجديد القديم من نتاج أمجد الطرابلسي هو ديوانه الذي حمل عنوان (كان شاعرًا). إنه ديوان صغير يضم قصائد ومقطعات من شعر الشباب كان قد زهد الشاعر في نشرها بعد أن عدَّى عن النظم وانعطف إلى التدريس والتأليف. وقد استجاب في نهاية المطاف لرغبة طلابه وأصدقائه في نشر ما تقدم من أشعاره. ومن طريف ما ذكره أمجد الطرابلسي بعد ذلك في هذا الصدد هو أن أحد محبيه كتب فوق مخطوطة شعره في أحد معارض الكتاب «كان شاعرًا» فاستحسن الدكتور أمجد هذه العبارة وارتضاها عنوانًا لديوانه الذي صدر سنة ١٩٩٣ ضمن مطبوعات المجلس القومي للثقافة العربية بالمغرب. وقد أهدى الشاعر ديوانه هذا إلى زوجته بالعبارات التالية :

«إلى رفيقة الدرب منذ خمسين عامًا...

إلى أم أولادي وجدة أحفادي...

مونيك الحبيبة زوجتي...

**أمجد**»

وصفوة القول أن أحدهم سأل الشيخ الإمام محمد عبده يومًا، وكان مقلاً في التأليف «لِمَ لم تؤلف؟» فأجاب: «كل تلميذ من تلاميذي مؤلّف» وهذا القول يسري أيضًا على أمجد الطرابلسي. فالطرابلسي لا يُثمَّن بما كَتب وما ألَّف، على قيمته، ولكن بمقدار ما أنجب وعلَّم وربَّى وترك بصماته على طريق تكوين جيل طليعي في حياة أبناء الجامعة السورية وسائر الجامعات بالمغرب الأقصى.

وهكذا مضى أمجد الطرابلسي إلى حيث يمضي كل حيٍّ، تاركًا في قلوب محبيه لوعة وفي عيونهم دمعة.